مستويات التلقي عند الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
في نفحات الولاية (خطبة الوفاء) أنموذجًا

المدرس الدكتور
فضيلة عبوسي محسن العامري
جامعة الكوفة ـ كلية الفقه

مستويات التلقي عند الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في نفحات الولاية (خطبة الوفاء) أنموذجًا

المدرس الدكتور
فضيلة عبوسي محسن العامري
جامعة الكوفة ـ كلية الفقه

المقدمة:ـ

إن الحديث عن مستوى التلقي يعد قديماً حديثاً؛ قديماً قدم الاستماع من قبل السامعين إلى النص الملقى عليهم، وحديثاً لتلونه بتلون القارئ في كلّ عصر وزمان، وكذلك تلونه بتلون ثقافة المتلقي التي تعتمد على الخزين اللغوي والثقافي من جهة، والاعتماد على ديباجة النص من حيث قوة الألفاظ ومرونتها من جهة، وقابليتها على التأويل والتفسير من قبل المتلقين الذين تختلف مستويات التلقي عندهم على ثلاثة أنواع: المتلقي القارئ، والمتلقي المتذوق، والمتلقي الناقد، والنوع الأخير هو الذي يتعلق بموضوع البحث؛ بمراعاة مستوى القارئ الثقافي والعلمي والديني من جهة، ومراعاة النص الذي اشتمل على القابلية العظمى من التأويل والتفسير؛ فاجتمع الاثنان في آن واحد؛ الأول منهما الشيخ مكارم ناصر الشيرازي الذي اشتمل التمهيد على التعريف بشذرات من حياته ومؤلفاته، والثاني نص نهج البلاغة الذي هو في غنى عن التعريف به وبصاحبه أمير المؤمنين عليه السلام، ثم تلا ذلك التعريف بنظرية التلقي عند المحدثين الغربيين كمصطلح مستقل، ومن ثم التطرق إلى جذورها في مؤلفات العرب القدماء، وما توصل إليه الباحثون المعاصرون إلى أصالة هذه النظرية عند العرب، وجاء البحث متضمنا مستويات التلقي عند الشيخ مكارم الشيرازي في شرحه لخطبة من خطب نهج البلاغة ألا وهي خطبة الوفاء، وقد وقع الاختيار على هذه الخطبة من دون غيرها لما لها من أهمية في الواقع الاجتماعي والسياسي الذي تمر به المجتمعات لاسيما المجتمع العراقي، ومن ثم ختمنا البحث بأهم النتائج التي توصل إليها معتمدين على عدد من المصادر والمراجع، وكان في أولها شرح نهج البلاغة المسمى بنفحات الولاية للشيخ مكارم ناصر الشيرازي، ومن المصادر البيان والتبيين للجاحظ، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ومن المراجع نظرية التلقي أصول وتطبيقات لبشرى موسى

صالح، وتأثير جمالية التلقي في النقد العربي لعلي بخوش وغيرها، ثم ختمنا البحث بالنتائج التي تلتها قائمة المصادر والمراجع.

شذرات من حياة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

ولادته ونشأته:

ولد الشيخ الشيرازي سنة ١٣٤٥هـ (الموافقة لسنة ١٩٢٤)، بمدينة شيراز في جنوب إيران، في أسرة متدينة، وقد كان جدّه الأكبر محمد باقر من تجار مدينة شيراز، حيث كان يشتغل بالتجارة في محلة (سراي نو) في شيراز، وكان يرتدي لباساً شبيهاً بلباس رجال الدين ويشارك باستمرار في صلاة الجماعة في (مسجد مولاي) في شيراز، وكان جدّه محمد كريم - ابن محمد باقر - يرتدي العمامة أيضاً، ولكنّه في أثناء عمله في السوق كان يلبس قبعة على رأسه، وقد اشتغل موظفاً أيضاً في (سوق الجمارك) ثم في (سوق وكيل)، وكان ملتزماً بالاشتراك في صلاة الجماعة في (مسجد مولاي) وكانت له علاقة وطيدة بالمرجع محمد جعفر المحلاتي - والد المرجع بهاء الدين المحلاتي -، و كانت له علاقة بآية الله محمد جعفر الطاهري.

أكمل دراسته الابتدائية والثانوية في شيراز، بدأ الدروس الدينية بشكل رسمي في سن الرابعة عشر تقريباً وذلك في (مدرسة آقا بابا خان شيراز)، فدرس شيئاً من الصرف والنحو والمنطق والمعاني والبيان والبديع، ثم عكف على الفقه والأصول، فتمكن أن ينهي جميع دروس (المقدمات) و(السطوح الوسطى) و(السطوح العالية) في أقل من أربع سنوات، كان خلالها كذلك يقوم بتدريس جماعة من طلبة الحوزة بشيراز[1].

مؤلفاته.

- مديريت فرماندهى در إسلام، باللغة الفارسية.
- معاد وجهان بس از مرك، باللغة الفارسية.
- التعزير وحدوده، باللغة الفارسية.
- الحيل الشرعية والحلول لصحيحة، باللغة الفارسية.
- مجموعه استفتاءات جديد، باللغة الفارسية.

- أحكام نوجوانان، باللغة الفارسية.
- أحكام الشباب، باللغة الفارسية.
- أحكام النساء، باللغة الفارسية – العربية.
- ألف مسألة فقهية، باللغة الفارسية، العربية، الانجليزية، الصينية، الأوربية، الروسية والتركية الآذرية.
- نفحات الولاية في شرح نهج البلاغة.
- آيات الولاية في القرآن.
- أمثال القرآن.
- نفحات القرآن.
- الأخلاق في القرآن.
- تعليقات على العروة الوثقى. يحتوي تعليقاته على مسائل كتاب (العروة الوثقى) لمحمد كاظم الطباطبائي اليزدي.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
- دروس في الحياة جديد.
- التسويق الهرمي.
- حكم الأضحية في عصرنا.
- الربا والبنك الإسلامي.
- الخطوط الأساسية للاقتصاد الإسلامية.
- زبدة الأحكام.
- أنوار الأُصول.
- الفتاوى الجديدة.

- القواعد الفقهية.
- رسالة توضيح المسائل.
- أجوبة المسائل الشرعيّة.
- دروسٌ في العقائد الإسلاميّة.
- مائة وثمانون سؤالا وجوابا.
- مسائل مهمّة حول رؤية الهلال.
- مناسك الحج.
- أنوار الفقاهة.
- أنوار الفقاهة كتاب الخمس والأنفال.
- أنوار الفقاهة كتاب الحدود والتّعزيرات.
- أنوار الفقاهة في أحكام العترة الطاهرة: كتاب التجارة، المكاسب المحرمة.
- الوهابية علي مفترق طريقين.
- الشيعة، شبهات وردود.
- الشيعة واليهود ونقطة الالتقاء.
- معاد وعالم بعد الموت.
- الاتصال بالأرواح.

خدماته:

- مجمع خاتم الأنبياء الثقافي.
- تأسيس مدرسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.
- تأسيس مدرسة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.
- تأسيس مدرسة الإمام الحسين عليه السلام.

- مدرسه الإمام السجّاد عليه السلام (مؤسسة فقه أهل البيت عليهم السلام).
- مجمع الإمام الباقر عليه السلام للثقافة والإسكان.
- مجمع الإمام الصادق عليه السلام للثقافة والإسكان.
- المركز الثقافي ودار الفلسفي للمبلّغين (في طهران).
- مركز التعرف على الشيعة.

نظرية التلقّي في الغرب:

قبل الحديث عن نظرية التلقي ونشوئها لابد لنا من الإشارة إلى ما تتناقله الكتب والمؤلفات الحديثة من كلامٍ عن نشوء مصطلح التلقي وارتباطه بجامعة كونستانس الألمانية لذا بدأ بعضهم الحديث عن النظرية ونبوعها من الفلسفة اليونانية وانصبابها في النهضة الأوربية الحديثة، ومن ثم تنوعها بالثقافة الإنسانية ولعل من أبرزها الثقافة العربية[٢]، هناك من أسمى هذه النظرية بـ(نظرية جمالية التلقي الألمانية) نسبة إلى ظهورها في ألمانيا[٣].

أصول نظرية التلقي:

ترجع أصول جمالية التلقي إلى فلسفتين عرفتا في ألمانيا هما الظاهراتية والهيرمونيطيقا، والظاهراتية تشير إلى أن المعنى - معنى أي ظاهرة خارجية في الوجود - هو خلاصة الفهم الفردي الخالص، وهذه العملية تسمى بالمتعالي، حيث يرى إنغاردن ((أن الظاهرة - وهو يطبق ذلك على العمل الأدبي - تنطوي باستمرار على بنيتين؛ بنية ثابتة (يسميها نمطية)، وهي أساس الفهم، وأخرى متغيرة (يسميها مادية) وهي تشكل الأساس الأسلوبي للعمل الأدبي، حيث إن معنى أية ظاهرة لا يقتصر على البنية النمطية (الثابتة) للظاهرة، بل إن المعنى هو حصيلة نهائية للتفاعل بين بنية العمل الأدبي وفعل الفهم.

أما الأصل الثاني الهيرمونيطيقيا (التأويلية) فقد استفيد فيها من خلال آراء الفيلسوف (هانس جورج غادامير) في مفهوم التأويل في نظرته إلى التأويل وعمل الفهم وإعادة الاعتبار إلى التاريخ - في إعادة إنتاج المعنى وبنائه، وهذا يعني أن (غادامير) يركز على الذات (القارئ) في عملية الفهم والتأويل، ويحاول أن يجعل من هذه العملية عملية موضوعية بحتة، وهذا ما يتضح في فهمه للتأريخ (الماضي)؛ فهو يخضع تأثيرات الماضي لفهم الذات[٤].

جمالية التلقي الألمانية (مدرسة كونستانس):

تعود جمالية التلقي في بداياتها الأولى إلى مجموعة من المقترحات التي صاغها الناقد الألماني((هانز روبرت ياوس) في الستينات، وقد صاغ هذه المقترحات في محاضرة عام ١٩٦٧ التي ألقاها في جامعة (كونستانس) تحت عنوان (لم تتم دراسة تاريخ الأدب) وقد تضمنت مقالة شهيرة عام ١٩٧٠ بعنوان ((تاريخ الأدب بوصفه تحدياً لنظرية الأدب، والى جانب مقترحات ((ياوس)) قدم ((فولفغانغ آيزر) مجموعة من المقترحات التي تصب في الاتجاه نفسه[٥].

١ـ جهود هاتز روبرت ياوس:

يرى ((ياوس)) أن ((أي عمل من سقط المتاع، أو من الأدب الاعتيادي في ذلك العصر يمكن تصنيفه استناداً إلى درجة (عدم التعاصر)، بينما تلك الأعمال المعاصرة تعتبر مرتبطة بأفق التوقعات))[٦]، وقد مثل الباحث علي بخوش نص لأبي نواس فإن معناه لا يتنصل كلياً لتاريخ التفسيرات والجدالات التي دارت حول شعره، وأي قراءة لهذا الشعر تستبعد هذه التفسيرات تعد قراءة قاصرة حيث إننا حين نقرأ في حاضرنا نص أبي نواس إنما ندمج فيها آفاقاً مختلفة تتعلق ببنية العمل، وبتاريخ تلقيه، والخصائص الجديدة لنوع كتابته، ولا نكتفي - كما تفعل البنيوية - لأبنية الداخلية له، فالنص لا يتطور تطوراً داخلياً محضاً (كما ترى البنيوية)، وإنما هو واقع تحت مؤثرات شتى داخلية وخارجية، يقوم المتلقي بفهم بنيته وإدراك جماليته، وهذا يفرض على المتلقي الإحاطة بجل المؤثرات الداخلية والخارجية التي يمكن أن تساعده في فهم النص وتأويله، حيث يتمكن بخبرته الجمالية وبهذه التفسيرات السابقة من بناء معنى النص الأدبي[٧] وقد وصف أحد الباحثين دور نظرية جمالية التلقي في قلب موازين القوى في المعادلة الأدبية والتركيز على المتلقي والقراءة قائلاً: ((لقد جاءت نظرية جمالية التلقي، فقلبت موازين القوى في المعادلة الأدبية وركّزت اهتمامها على متلقي العمل الأدبي، دون شريكيه الفنيين (المؤلف والنص)، ومنذ ذلك الحين أصبح تسليط الضوء على مجريات عمليتي القراءة والفهم، حصان المعركة النقدية الجديدة، تلك التي أعلنت عنها ثورة ياوس وآيزر في جامعة كونستانس الألمانية))[٨].

٢ـ جهود آيزر في نظرية جمالية التلقي.

ركز آيزر على ثلاثة مصطلحات هي النص، والقارئ، والمتلقي.

النص:

يعرف آيزر النص بأنه: ((بنية نصّية أو بنية من التأثيرات؛ إ ذ أنه يتميز بكونه مبنياً بالاستعدادات القبلية التي تتوقع حضوراً دائماً لمتلقٍ ما، وهو ما اشتهر في نظريته باسم القارئ الضمني))[٩]، ويضع آيزر تعريفاً آخر ((بنية نصية تتوقع حضور متلقٍ دون أن تحدده بالضرورة))[١٠].

القارئ:

في أثناء عملية القراءة على المتلقي أن ينتحي عكس الطريق التي قام النص بسلوكها، حيث يضطلع بمهمة إعادة التداولية إلى النص، وذلك بربطه مرة أخرى بالمرجعية الخارج نصيّة، أي بالسياقات الاجتماعية والثقافية والأدبية على تنوعها، وتتم هذه العملية عن طريق استدعاء المخزون، أو رصيد النص[١١]، ويقضي ذلك الأجراء إلى كشف المظاهر الاجتماعية والثقافية؛ التي ظلت خفيّة إلى حين قيام القارئ في أثناء عملية القراءة بصياغة الموضوع نفسه[١٢].

القارئ والفهم.

يشير آيزر إلى حصول التدرج في الفهم في أثناء قراءة النص والتفاعل مع النص الأدبي، ويتم انجاز هذه العملية المتواصلة من القراءة وصولاً إلى وجهة النظر الخاصة بالمتلقي والتي أطلق عليها اسم (الجوالة) وعرفها آيزر بقوله: ((وجهة متحركة تتجوّل داخل النص))[١٣] فهي وسيلة لتواجد القارئ في النص، ويرى آيزر أنّ كلّ لحظة من لحظات القراءة هي جدلية ترّقب وتذّكر، تعبر عن أفق مستقبلي لأن يحتل مجاله هو في حالة انتظار، وكذلك تعبر عن أفق يضمحل باستمرار وقد ملِئ سابقاً (من طرف القارئ)، وتشق وجهة النظر الجوالة طريقه عبر الأفقين معاً في آن واحد، وتتركهما يندمجان معاً خلفها[١٤]؛ فالعلاقة الجدلية تتركز عند آيزر بين قطبين القطب الفني (النص)، والقطب الجمالي(القارئ) الذي يقوم بعملية انشاء المعنى في أثناء عملية الفهم[١٥].

أصول نظرية التلقي عند العرب:

تتجلى أصول نظرية التلقي في الأدب العربي، ولكن ما يميزها هو عدم مثولها كمصطلح مستقل كما هو الحال في المصنفات الغربية الحديثة، وإنما أدرجت في ثنايا

الموضوعات التي تناولتها الكتب القديمة وقد تجلى ذلك في المصنفات الآتية:

البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥هـ):

وردت بعض النصوص في كتاب البيان والتبيين للجاحظ التي تركز على المتلقي والحضور الذهني له وعدم الإلحاح على المستمع إن لم يكن مقبلاً على الاستماع إليك بقوله: ((كان مطرف بن عبد الله يقول لا تطعم طعامك من لا يشتهيه يقول لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه وقال عبد الله بن مسعود حدث الناس ما حدثوك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم فإذا رأيت منهم فترة فأمسك))[١٦].

والتركيز على حسن الإفهام للمتلقي في تعريف البلاغة: ((قيل لعمرو بن عبيد ما البلاغة؟ قال ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك قال السائل ليس هذا أريد قال من لم يحسن أن يستمع ومن لم يحسن القول... قال السائل ليس هذا أريد قال كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام مالا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت قال السائل ليس هذا أريد قال عمرو فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن الإفهام قال نعم قال انك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المتكلمين وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستوجبت على الله جزيل الثواب))[١٧] إذن نلحظ التركيز على المتلقي والتخفيف عنه، وتزيين المعاني في نفسه، وإبعاد ما من شأنه أن يشغله، وبالتالي يشوش عليه تلقياته المختلفة.

وتحدّث الجاحظ عن المتلقي الأول للنص وهو المنشيء له في حديثه عن الحوليات قائلاً: ((ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة عنده حولاً كريتاً... فيجعل عقله ذماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمنقحات والمحكمات ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعرا مفلقا))[١٨].

عيار الشعر ابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ).

يتجلى ذلك في الصفحات الأولى من كتابه في أثناء تعريف الشعر، والتركيز على مسألة التلقي والاستماع قائلاً: ((الشعر - أسعدك الله - كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي

يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماع، وفسد على الذوق))[١٩].

ومن العبارات اللافتة في خطاب ابن طباطبا العلوي هي حديثه عن التلقي بالقبول في أثناء حديثه عن محنة الشعراء المحدثين الذين يكررون ما قيل في العصور الماضية، ولا يفلحون في ابتكار الجديد المدهش قائلاً: ((وقد سلك جماعة من الشعراء المحدثين سبيل الأوائل في المعاني التي أغرقوا فيها))[٢٠].

أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ).

يظهر ذلك في حديث الجرجاني عن اللفظ والمعنى والإشارة إلى القارئ البصير بجواهر الكلام قائلاً: ((فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً، أو يستجيد نثْراً، ثم يجْعَلُ الثناءَ عليه من حيث اللّفظ فيقول: حُلْوٌ رشيق، وحَسَنٌ أَنيقٌ، وعذبٌ سائغٌ، وخَلُوبٌ رائعٌ، فاعلم أنه ليس يُنبئك عن أحوالٍ ترجعُ إلى أجْراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغويّ، بل إلى أمرٍ يقع من المرء في فؤاده، وفضلٍ يَقْتدحُه العقلُ من زِناده))[٢١]، وفي ذلك إشارة إلى اهتمام عبد القاهر الجرجاني بالشخصية المستقبلة للنّص الأدبي، وهي شخصية الخبير العرف بالنص الجيد الممتاز، ذلك النص الذي توافرت فيه معايير الحسن، وهي التي يشبهها بالحلي والأحجار الكريمة[٢٢].

أما عند اللغويين العرب المحدثين فقد عرفت بأنها ((بنية منتجة تفضي إلى إنتاج الدلالات الأدبية وتقود إلى القراءة المفتوحة القادرة على فك شفرات النص ودمغه بطابع حي يستوعب آفاقاً غير نهائية من التأويل ضمن وعي نقدي فاعل))[٢٣].

وإن نظرية التلقي قد ((فسحت المجال أمام ذات المتلقي للدخول في فضاء التحليل، وإعادة الاعتبار إلى (القارئ) أحد أبرز عناصر الإرسال أو التخاطب الأدبي))[٢٤]، فأظهرت دوراً فاعلاً في العملية الإبداعية من خلال تفكيك أنظمة النص، وإعادة تشكيلها تشكيلاً فنياً يعتمد على إدراك القيم الجمالية التي يزخر بها النص وإبراز العمليات الإبداعية التي يسعى إليها المبدع، مظهراً تأثيره بالنص فارزاً لأنظمته النحوية والصرفية والصوتية والدلالية التي تشكل بنية كلية للخطاب على صعيد الألفاظ أو الكلمات، واقفاً على جماليات التعبير، فيكون دوره إيجابياً يحول فهمه للخطاب إلى تفسير وتأويل[٢٥].

وقد أثبتت الباحثة إيمان طالب عبد زيد الموسوي[٢٦] أن لمفردة التلقي أصلاً في القرآن الكريم، وهي تشير إلى عملية التفاعل النفسي والذهني مع النص، فالقرآن الكريم أصّل لنظرية التلقي وهو سابق لمدرسة كونستانس الألمانية في التأصيل لعملية التلقي ووضع أسسها، فالذي يريد دراسة كيفية التلقي فليبدأ من القرآن، ويعد التأويل مظهراً من مظاهر التعامل مع النص، وهو من أهم الأمور التي تستأثر بالاهتمام في نظرية التلقي؛ لكونه يعتمد على القارئ، وينظر إلى النص من زوايا عدة.

مستويات التلقي عند الشيخ مكارم الشيرازي في نفحات الولاية (خطبة الوفاء أنموذجا).

من المعروف إن المتلقين على أنواع ثلاثة هي المتلقي المخاطب والمتلقي القارئ المتذوق للنص والقارئ الناقد، والشيخ الشيرازي هو الناقد القارئ الناقد الذي يقف عند النص الذي يؤلف حلقة مشتركة بين المؤلف الغائب الحاضر، الغائب بشخصه الحاضر بنصه، وبين القارئ الحاضر بشخصه، والقارئ للنص بما يمتلك من قدرة بلاغية وثقافية يستطيع في أثنائها أن يكون القارئ الضمني الذي يقع خلف النص ويتفاعل معه، رابط ذلك كلّه بالحوادث التاريخية والاجتماعية التي عاشها مؤلف النص وانعكست في خطابه المؤثر على القارئ والسامع، ونظراً لما يمتلكه صاحب النص من قدرة بلاغية عالية انعكست في لغة النص؛الذي وقف عنده القارئ الناقد الشيرازي الذي يمتلك هو الآخر قدرة ثقافية وبلاغية التي وقفت عند النص البلاغي بالتأويل والتحليل مع الإشارة إلى الحوادث التاريخية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وربطها بروايات أهل البيت عليهم السلام، وقد تجسّد ذلك عند النظر في شرح الشيخ الشيرازي لخطبة الوفاء في نهج البلاغة تتبين لنا المستويات الآتية:-

المستوى الأسلوبي:

يبدأ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بـ (نظرة إلى الخطبة) يوجز فيه أهم الأمور المحورية التي تدور حولها الخطبة ومنها أهمية الوفاء وصدق الحديث، وذم ناقضي العهد، وأن الخداع والغدر والخيانة ليست من العقل والذكاء كما يظن ذلك الغدرة والفجرة، والعقل والفطنة في الصدق والوفاء بالعهد، وضرورة اغتنام الفرص من أجل المبادرة إلى الآخرة والوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق.

وبعد ذلك التوضيح يذكر نص الخطبة كاملاً بقول الإمام عليه السلام: ((إِنَّ اَلْوَفَاءَ تَوْأَمُ اَلصِّدْقِ وَلاَ أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ اَلْمَرْجِعُ وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ اَلْغَدْرَ كَيْساً وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ اَلْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ اَلْحِيلَةِ مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اَللَّهُ قَدْ يَرَى اَلْحَوْلُ اَلْقُلَّبُ وَجْهَ اَلْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اَللَّهِ وَنَهْيِهِ فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ اَلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي اَلدِّينِ))[٢٧].

يبدأ بعبارة بعنوان (الشرح والتفسير) وهنا يأتي الأسلوب المباشر في توضيح مناسبة الخطبة وإنّ لها رابطة معنوية بخطبة أخرى رقمها (٣٥)، ثم يذكر بعد ذلك القرائن التي تشير إلى أن هذه الخطبة ناظرة لمعرفة صفين وقضية التحكيم يتبع الأسلوب التوضيحي للخطبة بأنها جاءت نتيجة البحث والنقاش الذي دار بين صفوف المسلمين وان بعضهم نسب مكر عمرو بن العاص وخيانته وغدره إلى الكياسة والفطنة؛ الأمر الذي قد يشجع الآخرين لممارسة هذه الأعمال الشائنة البعيدة عن الإسلام وتعاليمه الحقة، ومن هنا خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة ليقبر هذه الأفكار المنحرفة ويحد من شياعها بين الناس، ثم عرض بالذم إلى المكر والخديعة ونقض الميثاق وأشار إلى العواقب الوخيمة التي تفضي إليها هذه الأعمال .

أشار إلى الأسلوب الذي اعتمد عليه الإمام عليه السلام وهو أسلوب المدح والذم، وقد بدأ بذم المكر والخديعة، ثمّ أثنى على الوفاء والصدق ذكر الأبعاد المعنوية والآخروية التي أشار إليها الإمام علي عليه السلام: ((وَما يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ اَلْمَرْجِعُ)) مستشهداً بقول آخر وردد في نهج البلاغة ((... وَلَوْ لاَ كَرَاهِيَةُ اَلْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى اَلنَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ))[٢٨].

تحدث الشيخ الشيرازي عن قيم المجتمع التي يسودها المكر والخديعة وربط ذلك بالسياسة المعاصرة فقد ينظر إلى الثعالب المكرة في السياسة العالمية على أنهم الساسة المهرة، بينما يرمون بالسذاجة وانعدام التجربة من يلتزم بالمواثيق ويراعون القيم الإنسانية والإلهية في سياساتهم، ويرى أن مثل هذه القيم تجر على أصحابها بعض المنافع على المدى القريب ويحظى بمديح هذا وثناء ذاك، كما أنها تؤول إلى التصدع والانهيار على المدى البعيد.

يعتمد على الأسلوب المقنع بعد ذكر السياستين المتناقضتين والآثار التي تترتب عليهما ومن هنا يوجه دعوة إلى الأمانة واحترام العهد في المعاملة بين الأفراد، وكذلك الدولة يجب

عليها مراعاة هذا الأمر من أجل كسب ثقة سائر البلدان واستقطابها لضمان مصالح البلاد الاقتصادية[٢٩].

ذكر الدعامة الأصلية للدين التي تتجسد في الوفاء بالعهود والمواثيق، مستدلاً بالأحاديث النبوية الشريفة منها ((لا دين لمن لا عهد له))[٣٠]، و((إذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم))[٣١].

تحدث الشيخ الشيرازي بالتفصيل عن الأمانة ومصاحبتها للوفاء مع ربط ذلك بالسياسة الاقتصادية للبلاد وضمان مصالحها مستشهداً بالروايات والحكم وهي ((الأمانة تجلب الغنى والخيانة تجلب الفقر))، وقول أمير المؤمنين عليه السلام: ((الأمانة والوفاء صدق الأفعال))[٣٢]، والاستشهاد بقول الإمام الصادق عليه السلام: قال أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ويدعى عبد الرحمن بن سبابة فقال لي أعظك؟ قلت بلى جعلت فداك، قال: ((عليك بصدق الحديث وأداء الأمانة تشرك الناس في أموالهم هكذا - وجمع بين أصابعه- قال فحفظت ذلك عنه، فزكيت ثلاث مئة درهم)).

ذكر الشيخ الشيرازي ردّ الإمام عليه السلام على مَن اتهمه بعدم العلم بالسياسة بوصف من لا يتورع عن الذنب والمعصية وعدم الاكتراث للدين ليفعل ما يشاء فيراه البلهاء سياسياً ناجحاً بعد جاء بقول الإمام عليه السلام: ((مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اَللَّهُ قَدْ يَرَى اَلْحُوَّلُ اَلْقُلَّبُ وَجْهَ اَلْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اَللَّهِ وَ نَهْيِهِ فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ اَلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَ يَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي اَلدِّينِ))[٣٣].

وضع الشيخ الشيرازي موضوعاً عاماً هو (السياسة الإلهية والشيطانية) فهو يقارن في أثناء درج الموضوع بالسياسة الشيطانية المتمثلة بالفئات والأحزاب التي تعتمد كلّ الوسائل من أجل الحصول على أكثر عدد من الآراء بغية الوصول إلى الحكومة، وان مثل هذه الحكومات تتبنى بعض الشعارات من قبيل حقوق الإنسان وحرية المرأة، ويطرحون بعض المسائل الأخلاقية من قبيل انتهاك حقوق الإنسان من قبل البلد الفلاني- إذا كان من أعدائهم - وان كان البلد من أصدقائهم فقد يحظى بتأييدهم ودعمهم وان انتهك تلك الحقوق ألف مرة كلّ يوم فهم ليسوا جادين في ما يقولون، وفي مقابل هذه الحكومة تأتي الحكومة الالهية التي تجمع بين السياسة والأخلاق وهي حكومة الأنبياء والأولياء التي لا تعرف المصالح الفردية ولا الفئوية، وهي قائمة على أساس القيم والمثل ويتكرس شعارها

يقول الرسول ﷺ ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))[٣٤] أو قول الإمام عليه السلام ((لولا... ما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، وقول الإمام الحسين عليه السلام: ((وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ))[٣٥].

الاستشهاد بالحوادث التاريخية التي تترجم سياسة أهل البيت عليهم السلام مقارنة بسياسة غيرهم منها لما غلب معاوية أهل العراق على الماء منعهم منه، فلما حمل أهل العراق انكشف أهل الشام عن الماء، وملك أهل العراق المشرعة - فقال أصحاب علي عليه السلام أمنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك - فقال: ((لا، خلوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون))[٣٦]، وكذلك عدم التفات الرسول ﷺ إلى أصحابه الذين أشاروا عليه بمنع اليهود الماء حين محاصرة قلاع خيبر فلم يجبهم ﷺ.

رواية مسلم بن عقيل عليه السلام حين امتنع عن قتل ابن زياد غيلة في دار هانئ بن عروة عليه السلام قائلاً: ((الإيمان قيد الفتك))[٣٧].

امتنع علي عليه السلام عن قتل عمرو بن العاص في صفين حين كشف عن عورته.

استشهد بقول ابن أبي الحديد الذي أورده في شرحه لنهج البلاغة حين تحدث عن مروءة ووفاء أحد أحفاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام هو إبراهيم بن عبد الله فقال: ((و كان لغير إبراهيم ع من آل أبي طالب من هذا النوع أخبار كثيرة و كان القوم أصحاب دين ليسوا من الدنيا بسبيل و إنما يطلبونها ليقيموا عمود الدين بالإمرة فيها فلم يستقم لهم، والدنيا إلى أهلها أميل))[٣٨].

اعتمد الشيخ الشيرازي على الروايات التاريخية مع التوضيح والإقناع الذي يناسب الطبقات الاجتماعية على اختلاف مستوياتها التاريخية، وان كان بعضهم لا يدرك أو لا يعرف الوقائع التاريخية لكن المقارنة بينهما تتضح الحقائق التي لا تخفى على كلّ ذي عقلٍ لبيب.

المستوى اللغوي:

يقوم المستوى اللغوي بفك الألفاظ الغريبة التي وردت في الخطبة مبيناً دلالتها الحقيقية ودلالتها المجازية وعلة تشبيه الإمام عليه السلام الصدق والوفاء بالتوأم.

قد وقف الشيخ الشيرازي عند كلمة (توأم) قائلاً: ((التوأم بمعنى الذي يولد مع

الآخر في حمل واحد، ويستعمل بشأن كلّ شيئين يرتبطان معا برابطة وثيقة، ومن هنا شبه الإمام عليه السلام فضيلتي الوفاء والصدق بالتوأم).

وقف الشيخ الشيرازي عند دلالة الوفاء فهي تعني الالتزام بالعهد، وهو نوع من الصدق، وان الصدق نوع من الوفاء يشير إلى المعنى الواسع والشامل لمعنى الصدق الذي يشمل القول والعمل مستدلاً بآي من القرآن الكريم قائلاً: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الأحزاب/٢٣، فمن الواضح أن المراد بصدق العهد في الآية هو الصدق في العمل، ولذلك أردفت بالقول ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب/٢٣، ومن هنا تتضح عمق الرابطة بين الوفاء والصدق.

أشار إلى دلالة (الجنة) اللغوية التي وردت في الخطبة قائلاً((الجنة بمعنى الدرع الذي يقي أخطار العدو في ميدان القتال))[٣٩].

المستوى النحوي:

تحدث الشيخ ناصر مكارم الشيرازي عن الأسلوب النحوي وان لم يشر إلى ذلك بالصراحة التامة في معرض حديثه عن استهلال الخطبة بخطاب الجميع ((أيها الناس إن الوفاء توأم الصدق)، ومعروف عند النحاة إن (أيها) من أساليب النداء [٤٠] بأداة النداء (أي مع حرف (الهاء) اللذين يفيدان التنبيه مع النداء، ثم قول الإمام عليه السلام (الناس) التي تفيد العموم فهو لم يحدد شخصاً بعينه.

الخاتمة ونتائج البحث:

من النتائج التي توصل إليها الباحث هي:

١- أثبت البحث أن النص في نهج البلاغة يفرض سلطته وقوته على المتلقي ويجعل المتلقي يستجيب للمبدع ويحمله على الاقتناع، من خلال استخدام الأساليب المعبرة والمؤثرة في المتلقين، وهو يختلف في ذلك عن النص العادي.

٢- إن هنالك مراحل للتلقي استخلصها البحث في مرحلتين هما: التلقي المباشر (الظاهري) والتي تكون عن طريق الحواس الظاهرة من الاستماع والرؤية ، ومرحلة التلقي الإدراكي والتي تكون عن طريق الحواس الباطنة، وهذه المرحلة

هي التي يمكن للإنسان فيها أن يدرك ويتعقل ويتدبر، ومن خلالها يمكن معرفة مستويات المتلقين، ومعرفة مدى تأثرهم واستجابتهم.

٣- إن مراعاة حال المخاطبين ومناسبة المعاني لمقام المستمعين تدلان على أهمية المتلقي، والمتلقي هو المعني بالنص المستقبل له.

٤- إن الترغيب والترهيب أسلوبان من الأساليب الناجحة في التربية والتفهيم وإقناع المتلقي، توجيهاً أو إرشاداً، تأثراً أو تأثيراً، وهما من أهم الأساليب التي تتلاءم مع النفس البشرية.

٥- إن للخطاب مباني يستند إليها ليؤدي من خلالها المعنى المراد، ويقرب الصور إلى ذهن المتلقي، وقد تناولها البحث من خلال المستويات اللغوية، والنحوية والأساليب الأدبية، فهي تقرب المعنى إلى ذهن المتلقي وتترك الأثر المناسب فيه، بحيث تصور الحادثة والكلام وكأن السامع يراها رأي العين، فهي تحرك طبقات إرادية متصلة بخيال المتلقي، فتثير تصوراته الحسية.

هوامش البحث

(١) ينظر: موقع آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي makarem.ir/index.aspx?lid

(٢) ينظر: نظرية التلقي في الغرب، المختار السعيدي: ١.

(٣) ينظر: تأثير جمالية التلقي (الألمانية) في النقد العربي: علي بخوش: ١.

(٤) ينظر: تأثير جمالية التلقي (الألمانية) في النقد العربي، علي بخوش٢، ٣.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٤.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٢.

(٧) ينظر:تأثير جمالية التلقي (الألمانية) في النقد العربي، علي بخوش: ١٢.

(٨) بوخال لخضر في رسالة الماجستير، اشراف: أ.د أحمد دكار: ٤٤.

(٩) ينظر:تأثير جمالية التلقي (الألمانية) في النقد العربي، علي بخوش: ٣٩.

(١٠) المصدر نفسه، وينظر: فعل القراءة، نظرية الوقع الجمالي، ترجمة حميد الحمداني والجيلالي،ط١ الكدية، مكتبة المناهل، فاس، ١٩٩٤: ٣٠.

(١١) ينظر: تأثير جمالية التلقي (الألمانية) في النقد العربي، علي بخوش: ٤٠، فعل القراءة، آيزر: ٥٧.

(١٢) المصدر نفسه: ٤٠.

(١٣) فعل القراءة، آيزر: ٧٠.
(١٤) ينظر:تأثير جمالية التلقي (الألمانية) في النقد العربي،علي بخوش: ٤٢، فعل القراءة، آيزر: ٥٧.
(١٥) ينظر:تأثير جمالية التلقي (الألمانية) في النقد العربي،علي بخوش:٤٣.
(١٦) البيان والتبيين،الجاحظ: ٧٠/١.
(١٧) البيان والتبيين: ٧٥/١.
(١٨) البيان والتبيين، الجاحظ: ٢١٧/٢.
(١٩) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي: في مقدمة الكتاب في حديثه عن (الشعر وأدواته).
(٢٠) عيار الشعر،ابن طباطبا العلوي: ١٤.
(٢١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: ١١ (باب القول في التجنيس).
(٢٢) ينظر: المتلقي بين التجلي والغياب: ٨٤.
(٢٣) بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات، ٢٩.
(٢٤) المصدر نفسه، ٣٣.
(٢٥) ينظر: مستويات التلقي للخطاب القرآني عند المفسرين، ايمان طالب عبد زيد الموسوي: ١٠.
(٢٦) ينظر: مستويات التلقي للخطاب القرآني عند المفسرين، ايمان طالب عبد زيد الموسوي: ٢٣٠.
(٢٧) شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ٢٤٥/٢ (خ٤٠).
(٢٨) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٦٥/١٠ (خ١٩٣).
(٢٩) ينظر: نفحات الولاية: ٢٨٩/٢.
(٣٠) مشكاة الأنوار، الكتبي: ٣٣/١.
(٣١) بحار الأنوار، المجلسي: ٤٦/٩٧.
(٣٢) ميزان الحكمة، محمد الريشهري: ٢٣٢/١.
(٣٣ نفحات الولاية: ٢/ ٢٩٠.
(٣٤) بحار الأنوار، المجلسي: ٦٨/ ٣٨٢.
(٣٥) بحار الأنوار: ٣٢٩/٤٤.
(٣٦) نفحات الولاية: ٢٩٢/٢.
(٣٧) بحار الأنوار،المجلسي: ٤٧٢/٢٩، تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي: ٣٥٩/١.
(٣٨) شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد:١١٤/٣.
(٣٩) نفحات الولاية:٢/ ٢٨٨.
(٤٠) شرح الكافية،الرضي الاستراباذي: ٣٥٧/١.

قائمة المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة في علم البيان: أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تعليق وإيضاح وتنقيح الأستاذ محمد عبد العزيز النجار، مكتبة ومطبعة: محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- بحار الأنوار: للعلامة ألمجلسي مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ.
- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: حسن السندوبي، ط٣، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٧م.
- تأثير جمالية التلقي (الألمانية) في النقد العربي: علي بخوش، مقالة منشورة.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن: الشريف الرضي،تحقيق: محمد عبد الغني حسن، ط٢، دار الأضواء، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- شرح كتاب الكافية في النحو: الشيخ رضي الدين الاستراباذي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان (د.ت).
- شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه (د.ت).
- عيار الشعر : محمد بن احمد بن طباطبا العلوي، تحقيق د. طه الحاجري، و د. محمد زغلول، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٦م.
- فعل القراءة، نظرية الواقع الجمالي: ترجمة حميد الحمداني والجيلالي،ط١ الكدية، مكتبة المناهل، فاس، ١٩٩٤: ٣٠.
- المتلقي بين التجلي والغياب (قراءة في بعض فصول مدونة النقد العربي القديم (رسالة ماجستير): إعداد الطالب: بوخال لخضر، إشراف:أ.د أحمد دكار، جامعة أبي بكر - بلقايد، كلية الآداب، الجزائر، ٢٠١١م - ٢٠١٢م.
- مستويات التلقي للخطاب القرآني عند المفسرين (رسالة ماجستير): إيمان طالب عبد زيد الموسوي، إشراف: أ.د محمد كاظم البكاء، جامعة الكوفة،كلية الفقه،١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.
- مشكاة الأنوار: محمد كاظم الكتبي، (د.ط،ت)
- نفحات الولاية: الشيخ: ناصر مكارم الشيرازي بمساعدة مجموعة من الفضلاء،إعداد: عبد الرحيم الحمداني، ط١، مط. سليمان زادة، قم، شارع الشهداء، ١٤٣٦ق- ١٣٨٤.
- نظرية التلقي أصول وتطبيقات: د. بشرى موسى صالح، ط١، المركز الثقافي العربي ـ المغرب، ٢٠٠١م.
- نظرية التلقي في الغرب: المختار السعيدي، تازة، المغرب (مقالة منشورة في موقع الأساتذة المبرزين والباحثين في اللغة العربية.